بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ:04/02/2008 الشيخ الطبيب محمد خير الشعال

((سلسة قوانين القرآن))

((سنة الله مع التغيير))

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله خير نبي اجتباه وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ولو كره المشركون ولو كره من كره، اللهم صل على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى فإن عملة الآخرة هي السيئات والحسنات، ومن زادت حسناته فقد نجا ومن كان أمره غير ذلك فأمره إلى غير ذلك.

إنه من ﴿ ooيَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) ﴾[الزلزلة]

ثم أستفتح بالذي هو خير، يقول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل:

﴿ . . . .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . . ﴾ [الرعد:11]

وقال ربنا: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53)﴾[الأنفال]

نحن في الخطبة الثانية من سلسلة جديدة بدأناها الأسبوع الماضي عنوانها: السنن الإلهية في القرآن أو قوانين القرآن.

في القرآن قوانين، في القرآن سنن إلهية ماضية لا تتوقف...

والمراد بالسنن الإلهية: الطريقة المتبعة من الله تعالى في تعامله مع البشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله تعالى.

وسبق أن هذه السنن ثابتة لا تتغير، ومضطردة لا تتبدل، وعادلة لا تظلم، وعامة لا تحابي...

وعنوان خطبة اليوم –وقد كنا في الخطبة الماضية نتحدث في المقدمات– اليوم سنبدأ بعرض سنة من هذه السنن. وعنوان الخطبة : **سنة التغيير**

كيف يغير الله ما بقوم من ضعف أو قوة، من رفعة أو ضعى، من غنى أو فقر، من وحدة أو شتات.

كيف يغير الله تعالى ما بأسرة من تآلف أو تنافر، من شجار أو حوار، من خصام أو وئام...

كيف يغير الله تعالى ما بامرئ من نجاح أو سقوط من علو أو هبوط من تأييد أو خذلان من توفيق أو عقاب!!؟ **إنها سنة التغيير**...

أقرأ عليكم أولاً بعض الآيات من القرآن الكريم التي تتحدث عن هذه السنة ثم أنتقل إلى الدلالات، قال تعالى في سورة الرعد:

﴿ . . . .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . . ﴾ [الرعد:11]

وقال في سورة الأنفال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) ﴾ [الأنفال]

وقال في سورة سبأ وسبأ هذه مدينة في اليمن:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ. . ﴾[سبأ] -لقد أعطيت سبأ نعماً كثيرةً آيةً في الجمال والرفعة والغنى- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا. . ﴾ -بدلوا وغيروا قال لهم: اشكروا فأعرضوا. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ -كان عندهم سد يسمى سد العرم انفجر السد وذهب السيل بالزرع والثمار-

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ﴾-أنواع من النباتات سيئة لا تصلح لطعام جيد ولا تصلح لتدفئة جيدة وليست روائحها بالحسنة- ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) ﴾[سبأ]

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) ﴾ [النحل]

هذه بعض الآيات في التغيير، تقول الآيات:

التغيير من الخير والسعادة والغنى والقوة إلى ضد ذلك هو بسبب أعمال الناس، وكذلك العكس التغيير من الضيق والبؤس والفقر والضعف والهزيمة إلى ضد ذلك هو بتوفيق الله بسبب عمل الناس.

التغيير من الأمن إلى الخوف، من الغنى إلى الفقر، من الوحدة إلى الشتات، من القوة إلى الضعف، من النصر إلى الهزيمة ومن حال إلى حال بسبب سنة حقت على هؤلاء القوم فهم غيروا فغير الله تعالى ما بهم. لو أنصفوا أُنْصِفُوا لكن بغوا فبغى عليهم الدهر بالأرزاء والنول.

قال الإمام الطبري في تفسير آية التغيير: ﴿ . .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . ﴾ [الرعد:11]

قال: لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيلها عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره.

وقال الإمام ابن كثير في تفسيرها: يخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه لأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه.

وقال الإمام الرازي: إن كلام جميع المفسرين يدل على أن المراد أن الله تعالى لا يغير ما بالعباد من نعمة بإنزال الانتقام منهم إلا بأن يكون فيهم المعاصي والفساد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله تعالى يقول الله وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا من أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا

رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي) [ابن مردويه وذكره ابن كثير]

الآن إلى الدلالات في آية سنة التغيير: ﴿ .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . ﴾ [الرعد:11]

الآية تدل على أن: التغيير ممكن.

مهما كنا بحالة ضعف فالتغيير ممكن..مهما كنا في فقر وقلة التغيير ممكن..مهما كنت في حالة ضيق وهم وكرب وتقليد يدين التغيير ممكن....

من هنا كان اليأس في الإسلام من الكبائر، لا يجوز لامرئ مسلم أن ييأس، قال سيدنا يعقوب كما في سورة يوسف:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) ﴾ [يوسف]

يقول المفسرون: كانت هذه الكلمة من يعقوب بعد خمس وثلاثين سنة من فقد يوسف، تخيلوا أباً فقد ولده فبقي خمساً وثلاثين سنة يبحث عنه، وفي السنة الخامسة والثلاثين يقول: اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا، أنا لم أيأس بعد ومن الممكن أن أجد يوسف.

لذلك إذا قال العامة: فاجل لا تعالج..إذا قال العامة: عوجة..إذا قال العامة: ما في أمل...

هذا كلام من الكبائر... التغيير ممكن...

وبالعكس مهما كنت في حالة غنى أو رفعة أو علو أو قوة أو نصر أو أمن انتبه فالتغيير ممكن..إذا غيرت سيغير الله تعالى...

من هنا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو من هو صلاحاً ورشاداً يكثر من أن يقول:

((**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك...**)) [الترمذي] و قال حديث حسن صحيح

تخيلوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم يخاف أن ينقلب من هذا الدين، إنه يخاف أن يغير هو معاملته مع الله فيغير الله تعالى درجته.

بل إن الصالحين دعوا في القرآن الكريم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (8) . . . ﴾[آل عمران]

بل إن **النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((ما شئت أن أرى جبريل إلا رأيته متعلقاً بأستار الكعبة يقول يا واحد يا ماجد لا تزل نعمة أنعمت بها علي))** [ابن عساكر]

جبريل عليه السلام يخاف، يخاف أن يغير مع الله تعامله فيغير الله تعالى رتبة جبريل بين الملائكة.

كل ذلك خوفاً من أن يغير الله تعالى ما بهم بسبب أعمالهم لأن التغيير ممكن وهذه هي الدلالة الأولى.

الدلالة الثانية في آية التغيير: تدل على أننا نحن المسؤولون عن التغيير.

فإذا أردنا أن يغير الله ما بنا فعلينا أن نتحرك نحن، علينا أن نفعل نحن، علينا أن نخطو نحن، أما أن ننتظر بطلاً مخلصاً يأتينا من عالم الغيب، أو أن ننتظر درهماً ودیناراً يسقط علينا من السماء أو أن ننتظر فرجاً يأتينا من الدعاء ونحن لا نعمل ولا نريد أن نعمل فإن الآية تدل على أن التغيير إلى الأحسن أو إلى الأسوأ نحن المسؤولون عنه.

وكذلك القول بأن كل ما بنا بسبب المؤامرة علينا ليس صحيحاً...

الطالب يرسب تسأله فيقول: بسبب سوء تصحيح المدرسين، الموظف يعاقب يقول: بسبب سوء أخلاق صاحب العمل، التاجر يخسر يقول: بسبب تداعي التجار علي، المرأة تطلق تقول: بسبب سوء خلق زوجي....

كل هذا ليس صحيحاً على الإطلاق، لأن الآية تقول أن الطالب هو المسؤول عن رسوبه، أن المراة هي المسؤولة عن طلاقها، أن التاجر هو المسؤول عن خسارته، أن الموظف هو المسؤول عن نيله هذه العقوبة.

نحن المسؤولون عن أعمالنا وعن التغيير... وهذه دلالة ثانية: لا ترمي أثقالك على الآخرين....

بسببك حدث ما حدث...

الدلالة الثالثة في الآية: الآية تدل على أن التغيير لن يتم إلا إذا غيرنا ما بداخلنا.

﴿ . . . حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . ﴾ [الرعد:11]

قال أحد المفكرين:أول النجاح نجاحك في إدارة ذاتك والتعامل مع نفسك بفاعلية.

قال ابن الجوزي:من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال.

وعند الصينين قصة تضرب مثلا يقولون: قرر شاب في عمر العشرين تغيير العالم كله خلال عشرين سنة، وعندما صار في الأربعين من عمره وجد صعوبة شديدة في ذلك وإنه لم يستطع أن يغير العالم...فقرر أن يغير ما بلده خلال عشرين سنة، ولما صار في الستين من عمر رأى أنه لم يستطع أن يغير بلده...فاتخذ قراراً أن يغير بلدته خلال العشرين عاماً القادمة، بلغ الثمانين ورأى انه أيضا لم يغير...فقرر أن يغير أسرته خلال عشرين عاماً، وحينما صار في المائة من عمره ورأى أنه لم يستطع التغيير اكتشف الحقيقة التي تقول: **التغيير يبدأ من عندك**....

غير ما في نفسك سيتغير كل العالم تعالوا نغير برنامج عملنا وفق شرع الله سيتغير كل العالم...

تعالوا نغير علاقاتنا داخل بيوتنا سيتغير كل العالم، أنت العالم وبسببك يحدث ما يحدث...

﴿ . .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . ﴾ [الرعد:11]

هذا قانون يا أيها الإخوة وسنة الله عامة لا تحابي وثابتة لا تتغير ومضطردة لا تتخلف وعادلة لا تظلم...

مهما صرخنا ومهما دعونا ومهما رجونا ومهما اشتكينا ومهما سألنا إن لم نغير ما بأنفسنا لن يتغير شيء....فيا أيها الإخوة ما لم نغير ما بأنفسنا لن يتغير ما يحل بالمسلمين..

غير معصيتك إلى طاعة، غير أخلاقك المرذولة إلى أخلاق حميدة...غير تعاملاتك المادية غير المشروعة إلى تعاملات مشروعة...غير رزقك الحرام واجعله رزقاً حلالاً...غير علاقاتك المحرمة مع النساء...غير أصحابك الذين يعينونك على المعاصي حتى يتغير ما يحل بالمسلمين...

يستطيع كل منا أن يغير ما بنفسه ويذهب بنفسه نحو طاعة الله ونحو تقواه **لن يمنعك أحد أن تنضبط بالشرع إلا نفسك التي بين جنبيك إلا الشيطان**....

يستطيع أحدنا أن يغير ما بداخل أسرته فيبني علاقات أسرته على شرع الله، أما أن تكون حفلات الخطوبة مخالفة للشرع، والمهور المرسومة مخالفة للشرع، والطلبات المطلوبة من العريس أو من العروس مخالفة للشرع، ما لم نغير ما في الأسرة ما هو داخل الأسرة وفق شرع الله فإن الأمر صعب...

ثم يستطيع أحدنا أن يغير ما في عمله فيرتب عمله على أخذ الحلال وترك الحرام، ثم يستطيع أن يغير ما بأصحابه وبجيرانه فيدعوهم ما استطاع إلى عمل المعروف وترك المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة...

إذا رآنا الله تعالى نغير ما بأنفسنا، ما بأسرنا، ما بأعمالنا، ما بأصحابنا، فإن سنة الله في التغيير ستقع علينا وسيغير الله تعالى ما بالمسلمين من قهر وضعف من تسلط الأعداء...

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) ﴾ [الروم]

الدلالة الرابعة والأخيرة في آية سنة التغيير: التغيير الجماعي لا يتم إلا إذا قام القوم مجتمعين للتغير.

لم يعد ينفع أن يعمل واحد منا وينام ألف لا يعملون..لم يعد يكفي أن يغير عشرة ويبقى على أخطائهم ألف أن يصحح مائة ويبقى على أخطائهم مائة ألف.

كلنا نعمل، كلنا يغير نحو الأحسن، كلنا يساعد بعضنا بعضاً في التغيير.

بحاجة إلى عمل جماعي في التغيير نحو الخير، نحو تطبيق شرع الله تعالى، نحو الانضباط بأمره نحو حسن الصلة بالله وحسن الصلة بالناس، فما لم نتحرك مجتمعين فلن يحصل التغيير المرجو للمسلمين.

وإن كان الذي يتحرك بمفرده سيرفع وسيعز وسيثاب لكننا نرجو لكل المسلمين الأجر والعزة والرفعة والثواب.

هذه هي خطبة سنة التغيير: ﴿ .إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. ﴾ [الرعد:11].

1. **التغيير ممكن.**
2. **نحن مسؤولون عن التغيير.**
3. **التغيير لا يتم إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.**
4. **التغيير الجماعي لا يتم إلا إذا قام القوم مجتمعين بالتغيير.**

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين.